

الموت فى غزة

the Death in Gaza

د. محمد عبد الحكيم
Dr. Mohamed Abdulhakeem

دار البشير

الموت في غزة

تأليف
محمد عبد الحكيم سليم

دار البشير
للثقافة والعلوم

للثقافة والعلوم

اسم الكتاب : الموت في غزة.

التأليف : د. محمد عبد الحكيم.

الموضوع : الاستشهاد.

عدد الصفحات : 112 صفحة

الطبعة : (الأولى 2008م)

الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم . طنطا

التوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم . طنطا

تليفاكس 3316316 /040 ـ0167467492

darelbasheer@hotmail.com

dar_elbasheer@yahoo.com

الإيداع القانوني : 23874 / 2006

الترقيم الدولي : I . S . B . M . 977 ـ 278 ـ 312 ـ 6

1429 هـ

2008 م

الموت في غزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلي
أحبابنا في غزة...
وفي كل أرض فلسطين..
إلى الذين رفضوا عيشنا الذليل..
ورحلوا نحو قمم الموت!
إلى الذين علمونا
كيف يكون الموت..
سبيلاً إلي الحياة..

فهل تعلمنا؟!!

محمد عبد الحكيم

أرض الشهداء

في جنات
الخلد يلتقون .. يتعارفون..
في أرض أورثها الله لعباده الشهداء
والمجاهدين.. في ظل ممدود.. علي
سُرر متقابلين يتذاكرون جهادهم، وأهوالاً
خاضوها واكتووا بنارها في الدنيا، سنعيش
معهم ملاحم الحق.. ونخوض أتونها الملتهب
.. في كل العصور وكل البلدان سنقابل اليهود
في أكناف الأقصي، ونتحدي الأعور الدجال،
سنشهد الملحمة الكبري .. ونفتح البلاد
البعيدة، لتعلو راية الحق - جَلَّ وعلا -
ويظهر دينه علي الدين كله.. ولو
كره المشركون..

(1)خلود.. ولا موت:

« يا أهل الجنة. خلودٌ ولا موت. . ويا أهل النار ، خلودٌ ولا موت» [1] .

لا زال الصوت يتردد في أعماق عمر الأزرق، رغم مرور وقت طويل منذ استقر وإخوانه في جنات النعيم، وناداهم منادي الله بالبشري، لا تزال فرحة الخلود تجول بين جوانحه، وكأنه لا يصدق أن الموت لم يعد هناك . . كما كان في الحياة الأولي . . ينتظره في كل لحظة، ويطالعه في كل ركن . . هذا الموت الذي تعلم منذ الطفولة أن يحدق في عينيه غير هيّاب ولا وَجل، هذا الموت ذاته قد (ذُبح كما تذبح الشاة، وانقضي سلطانهَ الرهيب المهيب، فلم يعد لَسعيد أن يخشاه ، ولا لبائس أن يتمناه.

من يصدق أن الموت قد مات؟!!

راح عمر يجوب أرجاء ملكه الواسع [2] ، منشغل الذهن بحديث نفسه حين لقيه أخواه أحمد الورداني ، ويوسف أرسان ، وقد خرجا في نزهة علي جوادين من خيول الجنة الطيّارة [3] ،

---

(1) انظر الحديث بتمامة فى الهامش رقم(8) من هوامش العدد الأول (أسود الجبل)

(2) عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكة ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أناده، ينظر إلى أزواجه وخدمه» راوه أحمد والطبرانى

(3) انظر الحديث فى الهامش رقم (6) من هوامش العدد الأول (أسود الجبل)

فباداه أحمد الورداني مداعبًا :

« أي حورية قد سلبت لبّك يا حبيب ، فصرت تجول مذهولاً كالعاشق الولهان؟!»

وأردف يوسف : « لنعرفنها ثم لنخبرن أم البنين بشأنها» .

وضحك الثلاثة في حب وصفاء ، ثم رد عمر قائلاً : - « ألم تعلما أن الله قد نزع من قلبها الغل والغيرة ، كما نزعها من قلوب أهل الجنة جميعاً؟!»

فقال أحمد : « بلي والله ، ولكنها دعابات الدنيا ، والآن أخبرنا . . فيم كنت تفكر؟!»

وابتسم عمر وهو يقول : « كنت أقلب بصري في نعيم الله ، أكاد لا أصدق أننا قد صرنا في أمان من كل ما يسوء ، وأنْ ليس لحياتنا هذه نهاية ، حتي الموت الذي عشنا حياتنا الأولي تحت سيفه المسلط قد صار الآن هباء منثوراً . . ذكري تراودنا فنعجب كيف كانت وكيف انقضت» . !!

وسادت لحظة من الصمت والتأمل ، قبل أن يعلق يوسف : -« نعم يا أخي ، إنه السؤال الذي كنا نقرأه في كتاب الله وصرنا نردده اليوم بين الفرح والعجب : -﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ**﴾ [الصافات : 58] [1] .

وأضاف أحمد في هدوئه المعتاد : -

« لقد عاش معظمنا حياته الأولي بين عواصف الجهاد وظلال الموت ، لم يعرف الأمان ولم يعتَدْ عليه ! ! »

وهز عمر رأسه قائلاً : -

« وهذا ما أوصلنا إلي الأمان يا أخي . . كما قال ربنا « **لا أجمع لعبدي أمنين.. ولا أجمع عليه خوفين..** » [2]

وابتسم يوسف وهو يقول :

« وكأننا نستكثر علي أنفسنا الأمن والخلود . . »

فقال عمر : « هو والله كثير علينا ، ولا يفي به ما قدمنا مهما كان ومهما بلغ ، لولا فضل الله . . ومنّه . . ورحمته . . » .

---

(1) قال - تعالى علي لسان مؤمن من أهل الجنة : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصافات 58 : 60]

(2) قال تعالى فى الحديث القدسى« وعزتى وجلالى لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هـو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى » [راوه ابن حبان والبيهقى وابن أبى الدنيا]

فرد أحمد قائلاً: « صدقت يا عمر، لكنك تراوغنا منذ اليوم وكأنك لا تريد أن تنجز لنا وعدك . . فتكمل لنا قصة دنياك، أنسيت أن اليوم موعدك؟!»

ورفع عمر حاجبيه في دهشة:

« أحقاً؟ . . لقد شغلتني الأفكار والتأمل . . فنسيت أمر اللقاء . . »

وأحاط أحمد كتفيه بذراعه قائلاً:

«ولكننا لم ننس» فانطلق بنا إلي مجلس الإخوان تحت الشجرة، فليس لك مهرب منا اليوم قبل أن تتم لنا قصتك . . »

وانطلق الإخوان إلي مجلسهم . . ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 170] (1) .

* * *

هي طوبي (2) . . وظلها الممدود . .

وينتظم عقد الإخوان من جديد، علي الأسرّة متقابلين الأنظار متجهة إلي بطل اليوم . . عمر الأزرق . . ورأي (عمر) أن يبدأ من البداية، فحكي لهم كيف قتل أخوه (أسامة) في

(1) قال - تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169: 170]

(2) انظر الهامش رقم (9) من هوامش العدد الأول (أسود الجبل).

مظاهرة التنديد بتدنيس الأقصي الشريف، قتله الضابط اليهودي (**إيجال**) أمام عينيه، وكيف خُطف جاره (**حامد**) من قبل اليهود المتعصبين، وذبح في ڤيلا (**أَشكول**)، مقر حركة (**هارحوما**) الصهيونية، في الوقت الذي كان فيه (**عمر**) وإخوانه يخططون لنسف تلك الڤيلا بمن فيها من المجرمين الصهاينة، وكيف نجح (**عمر**) فى إيصال المتفجرات إلي الڤيلا ثم الهرب بعد أن أصابه غريمه (**إديجال**) برصاصة في ساقه، وكيف ذهب لوداع جده الشيخ (**موسي**) في ساحة الأقصي

الشريف بعد أن قرر إخوانه أن يخرج من القدس، وكيف علم إيجال بوجوده وحاصره بجنوده، وكيف تدخل (**سعدون**) جارهم المستكين الذي حوله فقد ابنه (**حامد**) من السلبية والتخاذل إلي التضحية في لحظة صدق ، فاشتبك مع إيجال في قتال غير متكافيء انتهي باستشهاده، لكنه أتاح الفرصة لعمركي يهرب، وكان ذلك آخر عهد (**عمر**) بالقدس في زمن الاحتلال، وأول عهده بغزة. .

غزة الصامدة. . بشاطئها الحزين، ورجالها الذين لا يهابون الموت.

* * *

(2) الليل.. والسجّان:

عشر سنوات مرت علي أحداث قصتنا الأولي . . عمر الآن شاب تعدي الثلاثين ، هو ذلك القابع في ركن زنزانته ، يستغفر الله بعد أن سلّم من وتره ، الليل طويل صامت كليل السجون في كل مكان وزمان ، لا يقطع صمته سوي وقع أقدام السّجان ، يذهب ويجيء يدخن سجائره الواحدة تلو الأخري ، ويستحث عقارب الساعة لتحكم بانقضاء ورديته ، لكن ورديته تنقضي في الثامنة ، والساعة لم تتجاوز الرابعة بعد .

حانت منه التفاتة عبر النافذة الصغيرة في باب الزنزانة ، فرأي سجينه (عمر) قد انتهي من صلاته . . بدا له أن يتجاذب معه أطراف الحديث ، لعل ذلك يعينه علي قتل ما تبقي من وقت الوردية ، أدار مفتاحه في الباب ، ودخل .

كان (جاسم) رقيبًا في السلطة الوطنية ، ذا قامة فارعة وشعر أشقر قصير ، هو في سن (عمر) . . أو أصغر قليلاً ، افترش الأرض واضعًا بندقيته بين ساقيه ، وراح ينفث دخان لفافته متحاشيًا النظر إلي عيني سجينه : « لديكم أيضاً ورديات للحراسة ! » وردّ عمر قائلاً : « نعم . . لا نحب أن تخلو الزنزانة من قائم لله يتلو كتابه . . ويدعوه سبحانه ليفرّج الكرب ! » .

وابتسم جاسم ابتسامة حزينة :

« ما أجمل كلماتكم . . وشعاراتكم . . لولا أنها أتت في الزمن الخطأ؟ » .

وابتسم عمر بدوره وهو يقول : « وفي أي زمان كان لها أن تأتي؟ » رفع جاسم كتفيه ومط شفتيه كهيئة المتسائل وهو يقول : « لا أدري . . ربما في زمان الصحابة ، أو المهدي المنتظر . . أي زمان غير زماننا هذا الرديء ، هذا الزمان لا مكان فيه للمُثُل والشعارات ، لقد خذلنا الجميع ، ويجب أن نسلم بالأمر الواقع ، ونقبل بما يعطوننا إياه . . » .

سادت لحظة من الصمت ، راح (عمر) يحدّق في شقوق الجدار المتهالك بينما ينفث جاسم دخان لفافته في عصبية ، بدأ (عمر) الكلام وعينه لا تزال معلقة بالجدار :

«أنت تتحدث كما لو كنّا قد اخترنا الطريق ، وكأننا نحن الذين بدأنا اليهود بالقتل والتشريد ، أنت تعلم جيداً أن الفلسطيني قد وُلِدَ بلا خيار ، ولد في قلب المعركة ، إما أن يُبَاد . . وإما أن يقاوِم . . »

وأكمل (جاسم) ساخراً : « وإما أن يحدث الأمران معًا . . »

هز (عمر) رأسه موافقاً : « ربما . . من مات دون عرضه فهو شهيد» وبعد لحظة صمت أردف (عمر) : « وهب أننا نردد شعارات بعيدة عن الواقع . . لم لا تتركوننا وأوهامنا؟ . . لم

تحولون بيننا وبين عدونا وعدوكم؟!»

رد (جاسم) وقد لبس هيئة الناصح الأمين :-

« إننا نحميكم من هذه الأوهام . . نحميكم من أنفسكم . . أنت ياعمر لولا أنك هاهنا ، لاغتالك اليهود من زمن طويل» .

طافت بذهن (عمر) صور شتي ، من التفتيش إلي الاعتقال إلي التحقيق ، وارتسمت علي شفتيه ابتسامة مريرة . . فقذف محدثه بما تبقي من لفافته علي الأرض ، وهب واقفاً يدوسها في غيظ وهو يقول :-

« ثم إنكم تدفعوننا معكم إلي الهاوية ، أوهامكم هذه تثير غضب اليهود ومن وراءهم ، فيدمرون ما تبقي لنا من سبل الحياة . . أنتم تسوقون الناس نحو الموت ، أما نحن فنكافح من أجل الحياة . . الحياة ياعمر . . »

رفع (عمر) حاجبيه في استهزاء وهو يردد :

« وهل حصلتم عليها؟! وهل تسمي هذه حياة؟!»

أدار جاسم ظهره وقد قرر أن ينهي المناقشة :

« هي حياة علي أي حال . . وهي أفضل من أن نموت جميعاً . . » وخطا نحو باب الزنزانة و (عمر) يلاحقه بكلماته

المطمئنة . . « الموت والحياة بيد الله وحده يا جاسم . . هو الذي خلق الموت والحياة»

وتعالي صوت الأزيز القبيح . . إنها طائراتهم من جديد، تُري أي هدف تسعي إليه الليلة، أسرع (جاسم) يغلق باب الزنزانة من الخارج، لكن الأزيز تعالي . . وتعالي . . واستحال هديرًا يصم الآذان . . يقترب . . ينفجر معه كل شيء . . ليحيل المكان باباً من أبواب الجحيم . .

وحين انقشع الغبار . . لم يكن هناك باب . ولا حتي جدار . .

كما أنه لم يكن هناك (جاسم)!!

* * *

في هذه اللحظة بالذات ، كان (إيجال) يراقب سير العملية علي شاشات الرادار، ويضرب بقبضته المائدة مع كل صاروخ ينقض علي مبني السجن العتيق، راح يصدر أوامره عبر جهاز الاتصال:

« عودوا إلي هذا السجن، لا تتركوا فيه حجرًا علي حجر، لا أريد ناجين ، يجب أن نبيد كل من فيه من «الإرهابيين» وهناك . . علي الجانب الآخر من جهاز الاتصال ، كان

(شمعون) يضغط علي أزرار توجيه الصواريخ بشكل آلي . . ووجه جامد القسمات ، وهو يعيد في ذهنه ردّ قائده (**إيجال**) حيث سأله بصوته الرتيب الخفيض :

« سيدي . . لا بد أن يقتل في هذه العملية جنود للسلطة الفلسطينية»

وكان رد (**إيجال**) بسيطًا . رهيبًا :

« وما أهمية ذلك يا عزيزي ؟؟ فليذهب العرب جميعاً إلي الجحيم ، فربما كان ذلك أفضل لهم ! ! »ً .

لم يستطع (**شمعون**) أن يقنع نفسه بإرسال العرب جميعاً إلي الجحيم . . ولكنه كان يرسلهم - لا يدري إلي أين ، فتلك هي الأوامر علي أي حال . .

كان (**إيجال**) قد بلغ الأربعين أو كاد . وهو الآن مقدم في جهاز المخابرات الداخلية الإسرائيلية ، وكان يتابع سير العمليات من موقعه في عسقلان . . أو (**أشكلون**) ، كما يحلو لليهود أن يطلقوا عليها ، أما (**شمعون**) فهو ساعده الأيمن ، وتلميذه المختار ، وطيّار المروحيات الذي يعتمد عليه في عملياته ، ولا يتبع سوي وحدة العمليات الخاصة التي يقودها (**إيجال**) بنفسه ، كان شابًا هادئًا مطيعاً . . لا يعيبه في نظر قائده . . سوي جموده الزائد ، وطبيعته المثالية الواضحة . .

راح **(إيجال)** يفرك يديه في سعادة، كان يعلم أن غريمه هناك، ذلك الشاب الذي فر من قبضته منذ سنوات، والذي يمثل اليوم أحد أهم المطلوبين علي قوائم أجهزة الأمن والمخابرات، راح يحدق في الصور التي تلتقطها المروحية وتبعث بها إلي الشاشة في عسقلان، لقد عمت الفوضي وصار السجن كومة من الأنقاض والأشلاء، ولكن كيف يتأكد أن هدفه الأساسي قد قضي عليه.. كيف.. كيف؟!

* * *

(3) الإسرائيلي:-

الصباح مشرق في عسقلان، هو الربيع ينشر جناحيه الخضراوين فوق الربوع، ويكسوها بمزيج من ألوانه المبهجة، لا أثر للموت أو الدمار الذي خلّفناه في غزة، علي بعد عشرين كيلو متراً فقط من هذه البقعة الخضراء، المحيطة بمصنع النسيج الصَّغير، ها هي **(شهد الطلال)** تخطو عبر بوابة المصنع بقامتها القصيرة، ووجها المدوّر، ومرحها المعهود، لا تدع أحداً يمر بلا دعابة، وخاصة رئيسها المشرف علي القسم **(موشيه داران)** ذلك المهندس الشاب الأشقر، ذو العينين الحادتين الزرقاوتين، ابتسم **(موشيه)** لدعابات **(شهد)** الصباحية، وكان نادراً ما يبتسم، وخاصة للعرب، راح يتابع الفتاة بنظرة المعجب، فكان نصيبه

لكمة خفيفة من أمّه (راحيل) تلك العجوز النحيفة الثائرة دومًا، كانت مشرفة العمال في المصنع، ومصدر الفزع والرعب في صدورهم، بجسدها المعروق كأنما خرج من عصّارة.. وخطواتها السريعة التي تنقص علي أحدهم من حيث لا يدري، ولكنها هذه المرة قد انقضت علي ولدها فلكمته لكمتها الخفيفة، ليفيق من نظرته الحادة إلي تلك الفتاة، وأتبعت لكمتها بهمسة حازمة: «إنها عربيّة»..

ورد (موشيه) علي أمه بابتسامة ماكرة، وهو يضرب الأرض بقدمه في حركة مصطنعة:

«ولكنها جميلة يا أمي»..

كان (موشيه) في قرارة نفسه يسخر من أمه، ومن خوفها الساذج عليه من الوقوع في غرام عاملة عربية، هي مجرد أرملة عجوز لم يبق لها من الدنيا سواه، بعد أن خطفت قنابل العرب والده، وأودعته باطن الأرض بجنوب لبنان، لم يبق لها ما تفكر فيه سوي تزويجه من فتاة يهودية طيبة. -إن كانت هناك واحدة!!

راحت (راحيل) تدور كالنحلة بين عمالها العرب، تؤنب هذا وتعنف ذاك، وتوزع العقوبات والجزاءات علي المتأخرين والمتكاسلين، غير آبهة بتوسلات القادمين من خلف المعابر،

وأعذارهم اليومية المتكررة: « التفتيش . . والطابور . . والمعبر . . » ، وعندما مرت بشهد الواقفة وحدها أمام آلة النسيج زادت من تجاعيد جبهتها في غضب ، وسألت : « أين زميلاك؟!» .

هزت (شهد) كتفيها الصغيرين بلا مبالاة :

« هذا غسان قادم خلفك ، أما إياد فلم أره اليوم» .

مطّت (راحيل) شفتيها باشمئزاز وهي تقول :-

« هؤلاء العرب الكسالي ، سوف يأتي اليوم الذي أنظف فيه المصنع من أمثالهم . . » .

وردت (شهد) بابتسامة ساخرة :-

« وهل ستعملين بنفسك علي كل الآلات ؟!»

رمقتها (راحيل) بنظرة نارية ، وبدت كمن يبتلع غيظه راغمًا فيغص به ، ثم أدارت ظهرها المنحني واستأنفت سيرها لكن (شهد) لم تشأ أن تدعها وشأنها ، فأردفت سائلة : « وغسان » ألن يحظي منك بجزاء علي تأخيره؟!» .

والتفتت (راحيل) بنصف وجهها وهي ترد ببرود كاذب :-

« غسان إسرائيلي . . لا يحترف الخمول مثلكم . . »

والتفتت (شهد) ضاحكة إلي زميلها (الإسرائيلي) وهي تغمز بعينها :-

« لماذا تعتبرك هذه العجوز إسرائيليًا ولا تعتبرني أنا كذلك؟ ! . . في الأمر سرٌ ما ! ! » .

ورد (غسان) بهدوئه المعتاد : -

« وهل يسرك أن تكوني إسرائيلية؟ ! »

وتمادت (شهد) في ضحكتها . ولم تجب . . كان (غسان) شابًا في العشرين من عمره، أبيض البشرة . . أشقر الشعر، يكسوه سكون وحزن لا يفارقانه، ولو أن رسامًا أراد أن يبدع لوحة يسميها (المظلوم المستكين) ما استطاع أن يجسد معني الاستكانة كما يجسدها هذا الوجه وهاتان العينان ، كانت (شهد)و (غسان) كلاهما من عرب إسرائيل، من سكان عسقلان، كلاهما يتيم يتمه الصهاينة، وإن تركوا لشهد أمًا تعيش معها فى شقة حقيرة في إحدي حارات المدينة، أما (غسان) فهو يعيش مع عمته التي خرجت به طفلاً من (نابلس) - مدينته الأصلية - بعد أن قتل أبواه في قصف لليهود، وادعت أنه ابنها لتدخل إلي عسقلان، كانت لهما ظروف متشابهة . . وشخصيتان علي طرفي نقيض؟؟ . .

استأنفت (راحيل) جولتها وهي تكظم غيظها ، كانت تعلم كما تعلم (شهد) أنها تستطيع طردها من المصنع إن شاءت، ولكنهما تعلمان أيضاً أن (موشيه) يتدخل في كل مرة تنوي فيها العجوز

إنزال العقاب بشهد أو طردها ، وهذا هو ما يزيد غيظ العجوز؟ . .

انهمك (شهد)و (غسان) في عملهما علي الآلة، (شهد) بصخبها ومرحها،و (غسان) بهدوئه الشديد ، وكلماته التي تستطيع عدها علي أصابع يديك في يوم طويل ، أما زميلهما الثالث (إيّاد) فلم يظهر في ذلك اليوم قط، كان التفسير جاهزاً في أذهان الجميع. . منع من عبور المعبر لسبب ما، وما أكثر الأسباب، لكن الواقع أن (إياد) لم يكن في غزة ، بل لم يكن بعيداً عن مصنعه الكائن في عسقلان، كانت تلك هي المرة الأولي التي يدخل فيها إلي إسرائيل دون أن يضطر إلي الوقوف بطابور المعبر الطويل. . !

* * *

(4) لاحد للأسئلة:-

- « ولماذا هدم اليهود سجنهم؟!»

كان (حسين) ذو السنوات السبع يسأل في دهشة الأطفال » وأجاب (عمر) قائلاً: « ليس سجنهم يا صغيري، بل هو سجن الفلسطينيين. . »

وعاد الطفل يسأل - وقد ازدادت دهشته»

« ولماذا حبسك الفلسطينيون في سجنهم؟»

ابتسم (عمر)وهو يجيب في صبر :

« لأن اليهود أرادوا منهم ذلك . . »

« ولماذا ضربهم اليهود ما داموا يطيعونهم؟ ! »

وهنا تدخلت فاطمة - أم حسين - لتضع حداً لأسئلته التي لا تنتهي . .

« لا ترهق عمك بالأسئلة يا ولد . . لقد حان الوقت لتأوي إلي فراشك . . »

وابتسم (عمر) وهو يمسح بيده رأس الصغير :

« دعيه يا فاطمة . . ما يسأل عنه يحيّر أولي الألباب ، فكيف بطفل بريء مثله؟ ! »

وردت (فاطمة) : « ولهذا أمنعه من الإكثار في الأسئلة ، فلو أنه ظل يسأل حتي الصباح ما وجد للأسئلة حداً . . »

وندت تنهيدة من صدر (عمر) وهو يؤمن علي كلمتها :

« نعم يا فاطمة . . ما وجد للأسئلة حداً؟ »

وبعد لحظة صمت همست (فاطمة) :

« ولكن كيف خرجت من السجن بعد قصفه ولم يمنعك الحراس؟ ! »

وضحك (عمر)بينما أسرع (حسين) قائلاً : -

«ها أنت تسألين وتمنعينني أنا من الأسئلة . . »

وضم (عمر) الطفل إلي صدره وهو يجيب :

« لم يكن هناك حراس ، لقد نسف جدار الزنزانة وقتل حارسها بصاروخ موجّه، فوجدت نفسي في عرض الطريق ! ! » .

وردت الزوجة في حنان : « حمدًا لله علي سلامتك . . »

كانت (فاطمة)فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، نحيفة . . رقيقة . قمحية اللون ، تتحمل معظم المسئولية في رعاية ولديها (حسين) و (ردينة) ذات العامين ، لم تزل صورة أبيهما

الشهيد(فراس بوردينة) معلقة علي جدار غرفة الجلوس رغم زواج أمها من صديقه ورفيق جهاده (عمر) ، لم يكن (عمر) يزور بيتها إلا لمامًا ، وغالباً - كما هي الحال الليلة- تحت جنح الظلام ، فهو مطارد من قبل زواجه بها ، والواقع أنها قد اعتادت حياتها هذه من أيام زوجها الأول ، فقد كانت حاله معها لا تختلف كثيراً عن حال (عمر) ، فكلاهما قد اختار حياة الجهاد والاستشهاد ، فواحدٌ قضي نحبه . . وآخر ينتظر ؟

وما إن فرغ (عمر) من تناول طعامه الخفيف حتي بدأ يستعد

للرحيل ونهضت (فاطمة) فزعة: «لم نكد نراك».

ولكن (عمر) رد بحزم حنون: «تعلمين الحال يا فاطمة، لن نلبث أن نراهم يفتشون عني كل ركن، لا بأس،، ستصلك رسالة قريبة مني بإذن الله لنرتب اللقاء القادم.. هل عندكم ما يكفي من المؤن؟!»

وابتسمت (فاطمة) ابتسامة حزينة: «لا تقلق يا عمر.. ربنا لا ينسانا».

ساد الصمت والزوجان منهمكان في إعداد ما يحتاجه (عمر) لرحلة قد تطول وقد تدوم، بينما غلب النعاس (حسيناً) فنام علي الأريكة دون مقدمات.. سأل (عمر) متحاشياً بعينيه وجه زوجه الحزين:

«وما حال إياد، ألن يستيقظ لصلاة الفجر؟!»

وزاد سؤاله من علامات الحزن علي وجه الزوج، كان كلاهما يعلم حال أخيها (إياد) مع الصلاة، ولم يكن سؤال (عمر) سوي أمل الغائب في تغيير ربما حدث حال غيابه.. ردت (فاطمة) قائلة:

«لا زال كما هو.. يحرق بسجائرة نصف ما يكتسب من عمله بعسقلان»

وهز (عمر) رأسه قائلاً:

«لا تيأسي يا فاطمة من رحمة الله.. هو يهدي من يشاء..!!»

ورددت فاطمة كلمته الأخيرة: «هو يهدي من يشاء».

* * *

تسابيح السحر تتردد في أجواء غزة، وآثار القصف واضحة للعيان رغم بُعد مواقعه نسبيًا عن المنزل، العديد من شباب المقاومة الملثمين يجولون في الحارات والشوارع، وسيارات الإسعاف البائسة تهرول إلي المستشفي، حين أذن المؤذن للفجر، جالت بنفس عمر ذكري خفية، لذلك اليوم البعيد في ساحة الأقصي، ما أشد شوقه للقدس والأقصي الحبيب، فهل يكتب الله له العودة؟! أم يموت كما مات جده دون أن تقر عينه بالنصر والتحرير؟!..

هي فتن وآجال.. وإلي الله المصير؟

توقفت خطواته عند درج عتيق، يخطو منحدراً نحو قبو يبدو للعيان مهجوراً.. ولكنه لم يكن كذلك!!

* * *

(5) لن يحاسبنا أحد:-

أشرقت الشمس أو كادت، والصبح يتنفس أنفاسه الأولي، كانت (فاطمة) مستغرقة في نومها بعد سهر طويل،

تضم إليها ولديها الحبيبين، سمعت طرقاً عنيفاً علي الأبواب، في البداية خيل إليها أنها تحلم، لكن الطرق استحال هدماً لباب البيت العتيق، ثم وقع أقدام غليظة تنتشر بأرجائه، هبت (فاطمة) واقفة وقد ذهب عنها النعاس دفعة واحدة، كان جنود (السلطة) ينتشرون في كل مكان، حتى غرفة نومها لم تسلم من التفتيش، (حسين) يترنح نصف نائم، يتساءل مغمض العينين: «هل جاء اليهود؟!»، وانطلقت صرخات الصغيرة حين أزعجتها الأصوات من نومها، أما (إياد) فقد انتزعوه من سريره قبل أن يدرك ماذا يحدث، ولم يكد يفيق من نومه حتي تلقي ضربة علي مؤخرة رأسه أفقدته الوعي، وألقي به في سيارة الشرطة مكبلاً بالحديد، مط الضابط شفتيه قائلاً في امتعاض: «ليس أمامنا إلا أن نأخذ هذا حتي يظهر عمر.. ومن يدري؟ ربما يعرف مكانه!!»

* * *

الصباح مشرق في عسقلان، لكنه لم يكن كذلك في تلك الغرفة المعتمة، حيث كان إياد يفيق رويداً رويداً، تدور أمام عينيه الجدران، ويفتك برأسه صداع رهيب، بدأت ملامح الغرفة تتضح.. هو مكبل علي كرسي في وضع غريب، في فقرات ظهره آلامٌ لا توصف، هوت الصفعة علي خده الأيمن فبددت ما تبقي في رأسه من خدر.

« هذا يذهب بالنعاس . . أليس كذلك؟ ! »

كان محدثه يتكلم العربية، لكن (إياد) أدرك منذ الكلمة الأولي أنه يهودي . . لهم لكنة خاصة وإن أتقنوا العربية، لم يشأ التسليم بالحقيقة دفعة واحدة، فسأل في تخاذل : « أين أنا؟ » .

جاءه الرد سريعاً : « في جحيم العرب» .

جاءت كلماته مهزوزة : « ولكن . . اعتقالي تم من قبل السلطة . . » اقترب (إيجال) بوجهه فجأة من وجه سجينه وهو يقول في برود قاسٍ : « هذا ليس من شأنك . . أنت معتقل فحسب . . »

ثم عاد إلي خطواته الوئيدة . . يروح جيئة وذهابا وهو يسأل : « والآن أخبرني . . أين ذهب عمر؟ ! » .

وكان رد (إياد) بسيطاً : « في سجن السلطة» .

ودّوت ضحكة (إيجال) في أرجاء الغرفة . . قبيحة . . سمجة«أتريدني أن أصدق أنك لم تشعر بكل ما حدث ؟ ! »

وتساءل (إياد) في بلاهة : « وما الذي حدث؟ ! »

« ما حدث أننا نسفنا السجن بما فيهومن فيه، لكن زوج أختك اللعين ليس ضمن الجرحي ولا القتلي . . »

وأجاب إياد: « وما شأني أنا بهذا؟ . . »

فرمقه (إيجال) بنظرة أزالت رباطة جأشه المصطنعة: «شأنك أنه زوج أختك . . ولا بد أن زوجته تعرف مكانه . . أو ربما ستعرفه . . »

هز (إياد) رأسه قائلاً: « لا علم لي بشيء من هذا، لقد كنت نائماً ولم أستيقظ إلا علي وقع أقدام الجنود».

وهز (إيجال) بدوره رأسه وهو يقول في أسي: - « إذن . . لا تريد التعاون معنا . . هذا مؤسف حقاً».

وأدار ظهره خارجاً من الغرفة، وقبل أن يبتعد عن الباب تناهي إلي سمعه صوت صرخات (إياد) . . فاتسعت ابتسامته!

* * *

كان الليل قد نشر جناحيه السوداوين علي مركز المخابرات بعسقلان فزاده قتامة وسواداً، وكأن ساعاته خيوط العنكبوت . . أحاطت بالفريسة في إحكام وقسوة، أفاق (إياد) من غيبوته الثانية ليجد نفسه مقيداً علي ذات الوضع الغريب المؤلم، كانت الآلام تنهش كل ذرة من كيانه الضعيف كزلزال مخيف لا يبقي ولا يذر، اقتربت الخطي من بابه المغلق، نذير شؤم يحمل المزيد من الآلام، انفتح الباب فظهر وجه (إيجال)

الكالح، وأنفه القبيح المعقوف، وعن يمينه كان (شمعون) يخطو بمشيته العسكرية الرتيبة، ردد (إياد) في نفسه : « مرة أخري؟!».

وكأن (إيجال) قد سمع حديث نفسه فعاجله قائلاً : - «كنت تظن أننا قد سئمناك؟! كلا يا عزيزي اليهود يتحلون بالصبر، لا يسأمون بسرعة كالعرب!»

وبدت في عينيه نظرة وحش كاسر وهو يردف : - « أما إذا نفذ صبرهم . . فإن الواقف في طريقهم يداس . . يداس كما تداس الحشرات . . »

كانت نظرة الخوف في عيني (إياد) قد توارت . . وبقي يحدق في اللاشيء بلا شعور، ساد الصمت لحظات قصيرة وراح (إيجال) يجول في أنحاء الغرفة مقطب الجبين ثم بدأ الحديث : «فلنبدأ التحقيق من البداية . . ما اسمك؟!»

لم يحر (إياد) جواباً، وبحركة خاطفة التقط (إيجال) عصا قصيرة من جانب الغرفة، ولمس بها رقبة سجينه خلف الأذن، فانتفض جسد (إياد) بنبضة كهربية مفاجئة، وكاد يهوي بكرسيه إلي الأرض . .

« هل تكفي هذه لتتذكر اسمك؟!»

وعاد رأس (إياد) يتدلي علي صدره وهو يرد بتثاقل :ـ « إياد

حماد حسون» .

-« عمرك؟ ! »

- « 23 سنة» .

-« أين تقيم» ؟ .

- « حارة عمار بغزة» .

- « وهل هذا بيتك؟ »

« بل بيت أختي فاطمة . . أعني بيت زوجها الأول . . الذي قتلتموه! » نطق إياد بالكلمة الأخيرة وهو يتوقع رد فعل غاضب . . لكن (**إيجال**) أكمل حديثه قائلاً :

« فراس بوردينة . . أليس كذلك؟ » .

وهز (**إياد**) رأسه بحركة آلية، فأردف (**إيجال**) : « أختك تحترف الزواج من المخربين، ولسوف تترمل علي أيدينا قريبًا . . للمرة الثانية، والآن لماذا تقيم بهذا البيت . . أين بيتك؟ ! » .

- « لقد نسفتموه . . »

وتوقفت خطوات (**إيجال**)، وأطلق آهة تعجب وهو يسأل « نسفناه؟ . . لقد نسيت ذلك فيما يبدو . . متي حدث ذلك ؟ ! » . -«منذ عامين . . تقريبًا» .

وتوقفت خطوات (إيجال)، وأطلق آهة تعجب وهو يسأل «نسفناه؟ . . لقد نسيت ذلك فيما يبدو . . متي حدث ذلك ؟!» . - «منذ عامين . . تقريبًا» .

- « ولماذا نسفناه؟! لا بد أن أسرتك عريقة في الإرهاب . . » .

- « كنت أعيش في البيت مع أمي العجوز . . ولا أظن أن أحدنا كان إرهابياً . . » .

- « ولماذا نسفنا البيت إذن؟ » .

مط (إياد) شفتيه في سخرية مريرة : « خطأ بسيط في العنوان، لقد فجر جارنا نفسه في تل أبيب فنسفتم بيتنا . . ثم اكتشفتم الخطأ فعدتم ونسفتم بيت عائلته . . »

هز (إيجال) رأسه في وقار . . ثم أردف : -

-« وأين ذهبت أمك ؟ هل تعيش معكم عند فاطمة؟» ردإياد في بساطة :

- « لا . . لقد نسفتم أمي مع البيت . . » حدجه (إيجال) بنظرة قاسية، فهز (إياد) كتفيه مردفاً : - « لم يكن خطأكم هذه

المرة. . لقد كانت أمي صمّاء تقريباً. . لم تسمع نداء الضابط لإخلاء البيت. . لقد انتظروا ثلاث دقائق كاملة . . لكنها لم تخرج . . إنه خطأها. . » .

وضاقت عينا (إيجال) بنظرة أكثر برودة وقسوة: - « وهبْ أنه خطأنا. . أتظن أنك تحاسبنا عليه؟! »

ورفع (إياد) عينيه إلي طاغيته، وامتزج في نظرته القهر والخوف والكراهية، فعاجله (إيجال) بصفعة هائلة أطاحت به وبكرسيه إلي الأرض. . وبحركة سريعة داس بحذائه العسكري الثقيل علي خد (إياد) وهو يصرخ في حقد : - « نحن نسفنا بيتك . . وقتلنا أمك . . ولم يحاسبنا أحد . . وإذا دفنّاك في مكانك هذا فلن يحاسبنا أحد ، أتفهم أيها العربي الحقير ؟ لن يحاسبنا أحد» .

وعاد الهلع يعربد في أعماق (إياد) . . فلم ينطق . . كان ينتظر الضربة القادمة في كل لحظة ، ومن كل اتجاه. . ركله (إيجال) بقدمه ركله قوية، ألقت به في أحد الأركان، وأدار ظهره وذهب . . ومن خلفه خطا (شمعون). . كان وجه (شمعون) جامداً كالعهد به، وإن بدا علي قسماته بعض الكدر المختفي تحت السطح، بدا وكأنه يريد أن يطرح علي قائده سؤالاً ما، وعندما بلغا منتصف الممر لم يستطع البقاء علي سكونه،

فقال محاولاً ألا يبدو سؤاله سؤالاً : - « لا يبدو أنه يعلم شيئًا عن عمر . . ثم إن هذا الإرهابي أشد مكراً من أن يترك سره مع شاب مهزوز كإياد . . »

وابتسم (**إيجال**) ابتسامته الصفراء وهو يقول ببساطة : - «أعلم أنه لا يعلم شيئاً . . » .

ونبت السؤال تلقائياً هذه المرة - علي شفتي (شمعون) : - «ولماذا نعذبه إذن؟!»

وتجمدت عينا (**إيجال**) للحظة أدخلت الرعب إلي قلب تابعه ثم أردف قائلاً : - نعذبه ليعلم . . !!»

وانفجر ضاحكاً دون مقدمات . .

في تلك اللحظة . . شعر (شمعون) أنه يخاف قائده . . وربما يكرهه أيضًا لكنه هز رأسه في رتابة . .

وكأنه يوافق علي كل شيء !!

❊ ❊ ❊

(6) لماذا لا نرسم نحن؟!

لم يكن القبر مهجوراً . . وإن بدا كذلك . . بل كان يعج بحركة دائبة . . لا تنقطع ليلاً أو نهاراً . . الأسلحة - بشتي ألوانها - مصطفة قرب الجدار ، والشباب مجتمعون في دوائر

صغيرة، وفي ركن قصيّ من أركان القبو جلس عمر الأزرق مسنداً رأسه إلي الجدار وإلي جواره تربعّ (أبو عزام) علي الأرض، منهمكًا في تصنيع قنبلة جديدة، وقد علت جبهته السمراء حبات العرق ، كان يخلط مادة علي أخري، فيتصاعد منهما دخان له رائحة نفاذة. . ابتسم عمر مداعباً صاحبه: - «دخانك هذا يحمل رائحة الموت . . يبدو أن عبوّتك تتعجل الانفجار يا أبا عزام. . »

ودون أن يلتفت أجاب (أبو عزام): -

« لا تخشى شيئاً يا أخي الحبيب ، هي تميّز بإذن الله الصديق من العدو ، ولكنها « تكاد تَمَيَّزُ من الغيظ علي أعداء الله» .

وتمادي (عمر) في دعابته: -

« يا لك من إرهابي . . تحاول قتل (الأبرياء)!!»

وضحك (أبو عزام) وهو يرد : -

« هؤلاء الأبرياء يرسلون إلينا كل يوم أضعاف ما نرسل إليهم من أسباب الموت، إن عبوتي هذه (بريئة) بالقياس لما عندهم!»

وضحك الأخوان في سخرية مريرة. .

ثم قال (عمر): « ولكنك لم تخبرني بعد . . كيف (سترسل) إليهم هذه الهدية؟!»

وهز (أبو عزام) رأسه قائلاً : -

« تلك هي المسألة . . كيف سنرسل إليهم هديتهم . . ما رأيك في البريد السريع؟!»

وابتسم (عمر) : - « أي نوع من أنواع البريد . . الأرضي أم الجوي . . »؟!

مط (أبو عزام)شفتيه قائلاً : -

« أظن أنهم قد ملّوا النوعين معاً . . ينبغي أن نجدد . . »

وسادت لحظة من الصمت ، كان (عمر) يعلم ما يعنيه صاحبه ، لقد صار المرور عبر الحواجز التي أقامها اليهود صعباً للغاية ، كما أن قصف الصواريخ لا يكفي . . ولا يتسم بالدقة في إصابة الأهداف ، وبعد لحظات من التفكير هز (عمر) كتفيه قائلاً في بساطة : -

« لم يبق إلا البريد البحري ! ! »

ولأول مرة رفع (أبو عزام) رأسه . . والتقت عيناهما !

* * *

أشعل (إياد) لفافة التبغ الأخيرة في علبته ، ورمي بالعلبة في أحد الأركان بحركة عصبية ، راح يدخن بسرعة وهو ينظر عبر نافذته إلي الشارع الضيق ، والناس يهنئونه بسلامة العودة بعد

ثلاثة أيام من الاعتقال ، فلا يكاد يرد عليهم . . بل لا يكاد يراهم من الأصل ، لقد كان غائباً في أفكاره المشوشة ، كانت الكدمات علي وجهه تذكره في كل لحظة بحذاء (إيجال) ، يحس بثقله وخشونته فكأنما يدوسه الآن ، دقت (فاطمة)باب الغرفة بلطف ، ثم ولجت حين لم تتلق رداً . . سألت في تردد : « ألا تشعر بالجوع يا إياد ؟» ولكن أخاها استمر في تدخينه وكأنه لم يشعر بوجودها ، هزته هزاً خفيفاً وهي تعيد عليه السؤال ، فرد . . دون أن يلتفت إليها : - « لقد أطعمني اليهود ما يكفيني ! » تردد صوت أقدام صغيرة سريعة ، ودلف (حسين) إلي الغرفة في ابتسامته المعهودة ، أخذ يركل علبة التبغ الفارغة متخذًا منها كرة صغيرة ، وهو يسأل أمه عن موعد الطعام ، ثم التفت فجأة إلي خاله سائلاً : « لماذا لونت وجهك باللون الأزرق يا خالي؟!»

وابتسم (إياد) في سخرية وهو يرد : « لقد كان أحدهم يرسم علي وجهي لوحة فنية ! »

ورفع الصغير حاجبيه في دهشة : -

« رائع . . أنا أيضاً لدي ألوان . . وأستطيع الرسم والتلوين . . » ورد (إياد) : - « لا يا صغيري . . إن الرسم ليس من عملنا . . إنه من عمل الآخرين . . أما نحن فنلعب دور الورقة البيضاء ! ! »

توقف الصغير ، وبدا عليه عدم الفهم ، ثم سأل من جديد : -

-« ولماذا لا يحق لنا أن نرسم؟!»

وكأن أمه قد أرادت أن تنهي أسئلته قائلة : -

- « اترك خالك الآن يا حسين . . واذهب إلي المطبخ أنا قادمة حالاً . . »

ونسي (حسين) أسئلته حين تذكر جوعه ، فانطلق إلي المطبخ لا يلوي علي شيء . . ربتت (فاطمة) علي كتف أخيها في رقة وقالت : -

« الصبر يا إياد . . لا يصيب المؤمن هم ولا غم إلا كفر الله به من خطاياه . . »

ورد (إياد) في عصبية : -

- « وما أكثر الخطايا عندي . . أليس كذلك؟!»

فأردفت (فاطمة) : - أو يرفع به من درجاته . . ويزيد في حسناته . . »

هز (إياد) كتفيه قائلاً : -

«لا أظن أن هذا الصبر يزيد في الحسنات فهو صبر المكره . . وهل نستطيع فعل شيء سوي الصبر؟!» .

- « نستطيع - مع الصبر - أن نفعل الكثير . . »

وعاد (إياد) إلي سخريته : -

« الكثير . . الكثير الذي يفعله زوجك . . والذي ندفع نحن فاتورته . . أليس كذلك؟ ! »

وفي ثقة ردت (فاطمة) : « ربما كان قليلاً . . لكنه عند الله كثير . . »

رمى (إياد) بلفافته إلي الأرض . . وغادر الغرفة!

* * *

في صباح اليوم التالي ، كانت (شهد) قد اتخذت مكانها أمام آلة النسيج ،. وراحت توزع ابتساماتها علي الجميع ، بينما كان (غسان) منكباً علي عمله ، صامتًا كما كان دومًا ، مرت نصف ساعة من دوام الصباح قبل أن يخطو (إياد) إلي العنبر بخطوات مرتعشة ، كان يتوقع في كل لحظة صوت العجوز اللعينة ينهي إليه نبأ الطرد ، كانت أول مرة يتغيب فيها عن العمل ثلاثة أيام دون عذر ، وما عسي أن يكون عذره ؟ ! أيخبرها أنه كان معتقلاً لدي أجهزة الأمن الإسرائيلية؟ ، هو عذر - في عرفها - أقبح من ذنبه ، وقبل أن يقرر (إياد) أي كذبة سيدفع بها عنه هذه المصيبة ، كانت المصيبة ذاتها قد عثرت عليه ، وراحت تكيل له ألوان السباب بالعربية والعبرية ، وكل ما تحسنه من

لغات . . كانت (راحيل) ترغي وتزبد ، وكل من في العنبر ينظر مشفقاً إلي الشاب المرتعد أمامها . . ولا يشك . . أنها آخر مرة يراه فيها في هذا المكان . . وفجأة ظهر (موشيه)، وأوقف صراخ أمه بحركة حازمة من يده، ثم صوّب نظرة ماكرة نحو (إياد) سائلاً : « أين كنت يا فتي ؟!» وألقي (إياد) بأول كلمة خطرت علي باله : - « كنت مريضًا . . » .

وسادت لحظة من الصمت ، وكاد (إياد) يدير ظهره خارجاً إلي غير رجعة، ولكنه سمع صوت محدثه بارداً صارمًا . . «ستنال خصماً مضاعفاً . . عد إلي مكان عملك . . »

وفغر الجميع أفواههم دهشة، وأولهم العجوز التي راحت تنظر إلي ولدها محاولة فهم ما يحدث، فتأبط هذا ذراعها وخطابها إلي الخارج في تؤده ، تاركاً العمال لدهشتهم . . ثم لفرحتهم التي انفجرت فجأة ، فراحوا يهنئون (إياد) بسلامة العودة ، والنجاة من غضب (راحيل)، وخصته (شهد) بابتسامة رائعة، ولمسة تشجيع من يدها الرقيقة، أما (غسان) فقد خرج من صمته، وعانق زميله بحماس شديد، وهمس في أذنه : « كنت معتقلاً . . أليس كذلك ؟!» ، لم يجب (إياد) ، ولم يكن (غسان) بحاجة إلي إجابة، لقد كان (إياد) من أهل غزة . . أولئك الذين يعيشون تحت ظل السجن والموت في أي لحظة . . ومرة أخري أطل وجه (راحيل) القبيح في العنبر ، ووضعت صرختها

الغاضبة حداً مفاجئاً لأصوات التهنئة والفرح . . فعم الصمت . . وعاد كل عامل إلي عمله ، بينما عادت هي تستأنف حوارها العاصف مع ابنها خارج العنبر ، كانت تريد مبرراً واحداً لاستبقاء هذا العامل الكسول الحقير القادم من غزة ، ولم يستطع الابن أن يقدم لها هذا المبرر ، لقد كان هناك مبرر بالتأكيد . . لكنها لا تفهم ! ! .

* * *

(7) من يدري ؟!

مضت الأيام . . شهران أو يزيد ، (عمر) في مخبأه يخطط مع (أبي عزام) لعملية البحر ، و(فاطمة) في بيتها تجهد لتوفير القوت للصغيرين ، (إيجال) يبحث عن غريمه ليمزق جسده ، و (شمعون) يسأل نفسه : « وماذا بعد تمزيق الأجساد؟ ! »

(إياد) يزداد اقتراباً من (شهد) . . ومن عالمها الجميل المليء بالضحكات والمرح ، ويزداد سخطاً علي عالمه الذي لا يعرف سوي الفقر والموت . . كانت (شهد) حلماً جميلاً أطلّ بوجهه الصبوح . . وضحكته الصافية ، كانا كثيراً ما يخرجان بعد انتهاء العمل إلي الشاطيء القريب من المصنع ، كان شاطئاً جميلاً مهجوراً ، وكانا يمكثان هناك حتي تغيب الشمس ، ولا يشبعان من الضحكات والهمسات ، لم يكن حرس الحدود ليتعرض لهما . . بل كان الجنود ينظرون إليهما ويبتسمون . . ثم يمضون

بعيداً ، وكثيراً ما كانا يلتقيان (غسان) . . علي نفس الشاطيء . . وحده ، يرقب الشمس الغاربة ، فلا يلقيان له بالاً ، كان يزداد كل يوم غموضاً وانطواء . .

هل كان خجلاً أم سخطاً أم احتقاراً؟ ! لا أحد يدري ، لم يكن ليرفع رأسه نحوهما بعد أن فقدت علاقته بإياد حرارتها أما (شهد) فلم يكن ليرتاح إليها منذ التقت عيناهما أول مرة . . كانت الأيام تمضي . . والناس تمضي . . كلٌ في طريق ! !

* * *

دخل (أبو عزام) إلي المخبأ مسرعاً ، وأرخي لثامه فانكشف عن وجه ينطق بالجد والحزم ، وجه حديثه إلي (عمر) مباشرة : « لقد أُقِّرت خطتنا يا عمر ، ولم يبق إلا التنفيذ» . .

وتهلل وجه(عمر) فرحاً بالعودة إلي ميدان القتال : -

« وهل تم ترتيب وسيلة الإبحار ؟ ! »

هز (أبو عزام) كتفيه قائلاً : -

« ليس سوي قارب صيد صغير . . والله معك : » وسأل (عمر) مجدداً : - «وماذا عن الاستقبال ؟ ! » وابتسم (أبو عزام) قائلاً : - لا تظن أن أحداً سيكون في استقبالك بالورود . . سوي حرس الحدود الطبع ! »

وجاراه (عمر) بضحكة صافية :-

« أعلم ذلك . . لكنني أسأل عمن سيتسلم مني الأمانة لإيصالها إلي أصحابها . . »

وأشاح (أبو عزام) بكفه في بساطة :-

« لا تشغل بالك . . سوف تدفن الأمانة في الرمال عند نقطة سنعينها لك ، وتعود سالماً بإذن الله، وسوف يتولي أخٌ عزيز من إخواننا إتمام الجزء الباقي من المهمة»

وأطرق (عمر) في تأمل :-

« نعم . . الجزء المفضي إلي جنة الشهداء بإذن الله . . »

وربّت (أبو عزام) علي كتفه في حب :-

« كل الطريق يفضي إلي جنة الرضوان بإذن الله . . ثم أنت خارج إلي عملية جديدة وتقول هذا الذي تقول؟! فماذا نقول نحن المدفونون تحت الأرض، بعيداً عن ميدان الجهاد والشهادة؟!»

وابتسم (عمر) قائلاً :-

« ومن يدري يا أخي . . من يسبق ومن ينتظر ؟!»

* * *

صباحٌ جديد . .

و (شهد) تقف كعادتها أمام المرآة طويلاً ، لتصلح من هندامها ، أمها العجوز تذكرها - وقد نفذ صبرها - بالشاي الذي فقد حرارته، وموعد العمل الذي حان أوكاد ، لكنها لا تنتبه، فهي - أولاً - لا تخشي عاقبة التأخر عن العمل، بل ربما تتلذذ برؤية العجوز الشمطاء وهي ترغي وتزبد . . ثم تكظم غيظها راغمة حين يظهر (موشيه)، وهي - ثانيًا - معجبة بوجهها الجميل المطل في المرآة، وقوامها المتناسق ، فلا تزال تتأمل هذا وتصلح من شأن ذاك . . حتي تطمئن نفسها، ثم تلقي بأدوات التجميل الرخيصة علي الطاولة ، وتطبع قبلة سريعة علي وجنة أمها وهي تنطلق إلي الشارع، غير آبهة بصيحات الأم التي تحثها علي تناول شيء من الطعام، كانت (شهد) تحب الحياة، وتكره الموت، حتي حديث أمها الدائم عن أبيها الذي لم تَرَهُ، كانت تهرب منه إلي أي حديث آخر ، كان يذكرها بأنها هي ستموت يومًا ، وتتفتت أجزاء جسدها الجميل إلي رفات عفنة، كانت لا تطيق النظر إلي مشاهد الموت، تلك التي تقتحمً عليها حواسها في التلفاز أو الحقيقة ، الجثث والدم . . وسواد البارود المتخلف عن الانفجارات والقصف . . ولكن . . ما الذي جاء بفكرة الموت إلي ذهنها فى هذا الصباح المشرق؟!

دلفت إلي مكتب (موشيه) مباشرة ، فقد كان قد ترك لها إشارة بذلك عند البوابة ، كانت تبدو علي قسماته سيماء الجد ، فخففت (شهد) من اتساع ا بتسامتها ، وانتظرت كلماته الأولي : -

-«ما أخبار إياد؟!»

وأشارت (شهد) بإصبعها في غرور : -

-« رهن إشارتي !»

رفع (موشيه) عينيه إليها في نظرة شك ، وسأل : -

-« نحتاج إليه في عملية هامة . . هل هو مستعد لذلك ؟!»

وهزت (شهد) رأسها في ثقة : -

-« بكل تأكيد!» .

ونقر (موشيه) نقرة خفيفة علي مكتبه وهو يقول : -

-« حسنا . . ستأتين به إلي مكتبي حين تنتهي ساعات العمل»

ورفعت (شهد) كتفيها في دلال وهي تسأل : -

-« وماذا عن جوائزي؟!»

وابتسم (موشيه) مشجعًا وهو يقول : « كل ما تريدين !»

* * *

انتهي الدوام ، وتفرق العمال كلٌ في طريق، لم يبق سوي (شهد) و (إياد) ، و(غسان) الذي تباطأ في الخروج خلافاً لعادته ، وفاجأ زميليه بالسؤال : -

« هل ستخرجان إلي البحر كالعادة ؟ »

وبدا الذهول علي وجه (إياد)، ومتي كان (غسان) يسأل أو يتكلم ؟! لقد عهدناه صامتًا كأبي الهول الرهيب لم يدر (إياد) ما يقول، لكن (شهد) تدخلت بسرعة لتنقذ الموقف، فقالت متظاهرة بالضجر : -

« علينا أن نعمل ساعة إضافية . . تلك أوامر العجوز القذرة ! »

أشعل (إياد) لفافة تبغ في عصبية ظاهرة ، وبدا عليه الغيظ . . كطفل أحس بآخر يريد خطف لعبته المحببة، ولكنه سرعان ما خطا خلف محبوبته إلي خارج العنبر ، بعد أن اطمأنّا لمغادرة (غسان) ، وفي الطريق إلي مكتب (موشيه) سأل (إياد) : « ماذا يريد هذا المأفون منا؟ ! »

وابتسمت (شهد) سعيدة بغيرته : -

-« ربما يخطط لنزهة علي الشاطيء يقضيها معنا»

-« ومن قال إننا نريده معنا؟ ! »

كان (إياد) غاضبًا بحق، فضغطت (شهد) علي كفه في حنان كاذب وهي تقول: -

« هوّن عليك يا إياد.. إنه مجرد مأفون كما قلت » كانا قد بلغا باب المكتب، فدخلا.. وأغلق الباب.. مضت ساعة أو تزيد، قبل أن يخرج (إياد) مطرقاً.. وتخلفت (شهد) لحظة لتقول لموشيه كلمة بدت عارضة: -

- « أتعرف غسان؟! »

ورفع (موشيه) حاجبيه سائلاً: « ذلك الشاب الصامت دوماً؟! »

وغمزت (شهد) بعينها قائلة: -« ألا تريده ؟! » وهز (موشيه) رأسه في مرح مصطنع وهو يقول: -

- « ربما.. »

فقلدت (شهد) حركته وهي تردد نفس الكلمة في مرح..

-« ربما.. ».

* * *

(8) الكابوس: -

.. صوت (إيجال) يخترق أذنيه كسهام مسمومة، فلا يملك إلا أن يضغط الزر.. تنطلق القذيفة.. ذلك الشاب

الغاضب هناك . . تتقد عيناه كجمرتين من نار ، ويتقلب في يده الحجر ، مدّ ذراعيه يتلقي القذيفة ، راح صدره يكبر ويكبر ، حتي اخترقته القذيفة عند القلب مباشرة ، فانفجرت منه نافورة من الدم . . تتدفق بلا توقف . . تملأ الأفق ، وتغطي زجاج المروحية ، تزحف كالحيات فوق الزجاج ، وتتسرب إلي قمرة القيادة من .

كل جانب ، تتحول إلي أذرع وأكف لموتي يريدون سحبه لعالمهم السفلي ، تفجر في صدره هلع لا حدود له ، رفع يديه ليدفع عن نفسه ، فإذا بيديه يغطيها الدم . . الدم في كل مكان . . في كل مكان . .)

فتح (**شمعون**) جفنيه فجأة . . لم يصرخ . . مرت لحظات قبل أن يدرك أنه في غرفته الأنيقة الصغيرة ، وأن هذا لم يكن سوي حلماً آخر من أحلامه المريعة التي لا تنتهي كان جسده غارقاً في عرق غزير ، راح يرتجف كغصن ضعيف في مهب الريح ، كيف لطيّار مروحيات مثله أن يرتجف هكذا كالأطفال؟! من حسن الحظ أنه يعيش وحيداً في شقته هذه ، فهو لم يتزوج أبداً ، وإلا لسخرت زوجته من خوفه الطفولي وأحلامه الساذجة .

ولكن . . هل كان خوفاً طفوليًا حقاً؟ ، وما معني تلك الكوابيس التي لا تفتأ تهاجمه منذ شهور؟ لقد صار يكره العمل

والمروحية والطعام والنوم، بل صار يكره الحياة ذاتها ، ولا يريد أن يعيش يوماً آخر لينهي فيه حياة العشرات أو المئات بضغطة علي زر مروحيته!

أخرجه جرس الهاتف من تأملاته السوداء . . وأتاه صوت قائد وحدته (إيجال) رفيعاً حادًا كما كان في المنام، اعتدل (شمعون) في جلسته وكأن قائده يراه عبر الهاتف ، وراح يرد بكلمات آلية مقتضبة لا تعني سوي الطاعة الكاملة، والاستعداد لتنفيذ كل ما تلقاه من أوامر . . ويالها من أوامر ! !

❊ ❊ ❊

كانت تلك هي المرة الأولي التي يدخل فيها (غسان) إلي مكتب المهندس (موشيه)، كما كانت أول مرة يبتسم له فيها ذلك اليهودي ابتسامته اللزجة، ويدعوه لتناول مشروب بارد وهو يشير بطرف عينه إلي (شهد) الجالسة علي المقعد المقابل، هزت (شهد) رأسها مطمئنة فبدأ (موشيه) حديثه . . راح يتحدث عن حق اليهود في أرض الميعاد ، وأنه لا تعارض بين هذا الحق وحياة العرب فيها وراح يدلل علي رأيه قائلاً: « وأكبر دليل علي ما أقول هو وجودكما هنا . . ألستما من العرب؟ هل يعاني أحد من العرب في إسرائيل من ظلم أو اضطهاد؟!» وأشارت (شهد) برأسها في نفي قاطع ، بينما ابتسم (غسان) ابتسامة هادئة، شجعت محدثه علي الاستمرار في حديثه راح يتحدث عن أسباب الخلاف بين العرب واليهود،

وكم من الدماء سالت بسبب أعمال المتعصبين والمخربين، أولئك الذين يعتدون علي الأبرياء ، ويريدون محو اليهود من الوجود، وكيف أننا - محبي السلام من الطرفين - يجب أن نتعاون علي مقاومة هؤلاء المخربين أعداء السلام راح (غسان) يهز رأسه كما تفعل (شهد)، حتي انتهي (موشيه) من حديثه، وختمه واعداً بلقاء قريب ، تستكمل فيه مناقشة هذا الموضوع الهام، «ويشاركنا فيه أصدقاء آخرون مهتمون بالموضوع ذاته » كما قال (موشيه)، قبل أن يشير إليهما بكلتا يديه مودعاً، وعلي وجهه ابتسامة عريضة . . خرج (غسان)و (شهد) من المكتب يسيران الهويني . . رفعت (شهد) عينيها الخضراوين إلي زميلها . تسأل : « ما رأيك يا غسان في هذا الذي يقول؟ ! » ورفع (غسان) بدوره عينيه، والتقت عيناه بالعينين الجميلتين الشرستين كعيون القطط ، رسم علي وجهه ابتسامة باردة . . وهو يقول: « جميل . . جميل جداً . . »

* * *

راحت (فاطمة) تعد إفطاراً خفيفاً، وقد تسارعت نبضات قلبها انتظاراً لحدث اليوم، انتفضت حين سمعت وقع أقدام (إياد) من خلفها ، لم تتوقع أن تراه مستيقظًا في هذا الوقت المبكر من الصباح ، كانت قد أخبرته ليلة أمس أن رسولاً من (عمر) قد أتاها، وأنها خارجة للقائه بعد الفجر، ورغم إصرار (إياد) غير المعتاد أن يصحبها، فإن (فاطمة) لم تأخذ كلامه هذا مأخذ الجد ،

فكثيراً ما كان يعد ولا يفي ، وخاصة إذا تعلق الأمر بالاستيقاظ قبل موعده المعتاد، ابتسمت (فاطمة) لأخيها ابتسامة صافية . . إنها بادرة خير ! !لم يكن (إياد) وحده المتأهب للحدث، لقد كان (حسين) الصغير يملأ البيت بركضاته وصيحاته، مطالباً بحقه في لقاء عمه (عمر) ، ويصر علي ذلك وهو يعقد يديه خلف ظهره كالكبار قائلاً : « وكيف تأخذين الصغيرة ردينة وتتركيني أنا ألست رجلاً ؟ ! » .

ولم تلبث (فاطمة) أن أمسكت بكتفيه باسمة وهي تقول :-

-« حسنا . . ستراقب الطريق ! !»وصاح الصغير في حماس :- « بالطبع . . إنني خبير في هذا المجال . . »وضحكت الأم وابنها . . لكن (إياد) ظل عابساً ! !

- « هل كانت فكرة صائبة؟ ! »

هكذا سأل (عمر) في عصبية وهو يرقب الطريق من نافذة السيارة، وجاءه رد (أبي عزام) الجالس علي كرسي القيادة مطمئناً :- « لا بأس من أن تري أهلك قبل عملية كبيرة كهذه . . لا تقلق . . لا يلبث الأمر أن ينتهي ! »وفي تلك اللحظة ، ظهرت (فاطمة) ممسكة بيد (ردينة) الصغيرة . . كانت الأخيرة تتدحرج بخطواتها الخرقاء الحبيبة ، وإلي جنبها يتقافز (حسين) في مرح، وخلفها سار (إياد) في بطء وحذر، والتفت (أبو عزام) إلي (عمر) وقد انتقل القلق إلي نفسه هو :- « ألم ترسل إليها أن تأتي وحدها ؟ ! »

ورد (عمر) بجدية :- « إن شئت غادرنا المكان فوراً . . » وصمت محدثه لحظة ثم قال :- « لا بأس . . أمامك ثلاث دقائق! » غادر (عمر) السيارة، وانتحي بزوجه جانباً بعد أن صافح (إياد) وقبّل الصغيرين، راح يوصيها بنفسها وولديها، كان الحديث حديث مودع للحياة، واستمعت (فاطمة) لكلماته صابرة هادئة، ثم رفعت عينيها الحزينتين إليه قائلة : « هل ستعود ؟! » وابتسم (عمر) وهو يهز رأسه قائلاً :- «ربما في الدنيا . . وربما في الأخري . . »!! كان (حسين) منهمكًا في مهمته الخطيرة، يرقب الطريق يمنة ويسرة . . بينما وقف (إياد) خلف السيارة يشعل لفافة تبغ ، اقترب منه (حسين) سائلاً :-

-« ما هذه الولاعة الغريبة؟ إنها أول مرة أراها معك . . »

ورد (إياد) متظاهراً بعدم الاهتمام :-

-« لقد أهداني إياها أحد زملائي . . »وفي لحظة . . اختطفها الصغير من يده ، وقال متأملاً :-

« لقد أهدوا إليك ولاعة معطلة . . لقد استخدمتها خمس مرات قبل أن تشعل لفافتك!! »وقبل أن يتم عبارته كان (إياد) قد انتزعها من يده عنوة ، وقال غاضباً :- « وما شأنك أنت بهذا؟! »

رماه (حسين) بنظرة من طرف عينه وهو يبتعد، كانت الدقائق الثلاث قد انتهت، واستقل (عمر) السيارة من جديد ، بينما سار الجميع نحو الحضانة القريبة . . بدأت (فاطمة) الحديث

فجأة وكأنما أفاقت من حلم: « هل ستصحب (حسين) إلي المدرسة يا (إياد)؟!»

وأشاح الصغير بيده: - « أستطيع الذهاب وحدي. . » ودون كلمة أخري ، أخذ (إياد) بذراع ابن أخته الذي سار معه متذمراً ، بينما اتجهت (فاطمة) إلي الحضانة، تركت (ردينة) في قسم الرضع، ودخلت هي إلي الفصل الدراسي . . كانت سيارة (عمر) تمر في تلك اللحظة بالقرب من نافذة الفصل . . رفعت (فاطمة) عينيها بلهفة ، لتلقي عليه نظرة أخيرة . .

وبدأ القصف . .

* * *

« لن يفلت منا هذه المرة ، السيارة مميزة بالمادة المشعة، صوّب عليها مباشرة . . »

كان صوت (إيجال) يأتي عبر جهاز الاتصال، رفيعاً مبحوحاً كفحيح الأفاعي . . تماماً كما كان في الحلم، وكان (شمعون) يتصرف كآلة لا شعور لها، يضغط علي الأزرار ويوجّه مروحيته مطارداً السيارة ، لكن قلبه كان يغلي بنوازع شتي، كانت السيارة تمر أمام عينيه، ولجزء من الثانية، اهتزت يمينه، فانطلق الصاروخ ليمر فوق السيارة مباشرة، ويخترق جدار الحضانة المتهالك ليحيله إلي كومة بشعة من النار والخراب . .

- « تري . . كم قتلت الآن خلف هذا الجدار ؟!»

انطلق السؤال كالسهم يمزق عقل (شمعون) . . وصرخ (إيجال) عبر الجهاز : «لقد أخطأت يا شمعون . . لا بأس ، صوّب مرة أخري . . لن يفلتوا منك» . . انحرفت السيارة بسرعة هائلة إلي إحدي الشوارع الجانبية القريبة من البحر ، وصاح (أبوعزام) : « إنهم يريدوننا ياعمر . . اخرج بالعبوة معك . . » سأل (عمر) في فزع :- « وأنت ؟ ! »

-« سأراوغهم حتي تفلت . . غادر السيارة الآن . . »

وفتح (عمر) الباب ، وألقي بنفسه في قوة محتضنًا حقيبته - حقيبة الموت - ، تكوم علي نفسه ككرة تتدحرج إلي أقرب جدار ، وقبل أن يبلغ جداره . . دوي الانفجار الرهيب ، وحمل الضغط الهائل جسده ليضرب به الجدار في قسوة ، وقد انثني بجسده علي الحقيبة بكل ما يستطيع كي يحمي ما فيها من قوة الارتطام خشية أن تنفجر . .

كانت الآلام تعربد في كل ذرة من جسده ، . . لكنه غالبها . . وفتح عينيه وهو لا يصدق أنه قد نجا بحقيبته ، كانت السيارة أمامه كومة من الحديد المحترق . وبدا فيها جسد (أبي عزام) متفحماً يجلله السواد . . لقد سبقت يا (أبا عزام) . . قتلوك يا أخي . . وهدموا الحضانة علي من فيها من الأطفال والنساء . . تري . . أنجوت يا (فاطمة) أم سبقت إلي السماوات ؟! وما حال طفليك الحبيبين دارت الأسئلة في رأسه كنحل طنان لا نهاية له ،

لكن . . لا وقت للأسئلة ، لن يلبث الناس أن يتجمعوا . . ولن تلبث سيارت الشرطة والإسعاف أن تصل ، أدار ظهره للنار والخراب ، وعدا بكل قوته إلي الشاطيء . . لقد كان البحر ينتظره!

* * *

(9) ألن تعود؟!

لم تكن أول غارة تستقبلها غزة ، وتتلقاها بصدرها الجريح الحزين ، لم تكن الأولي . . ولن تكون الأخيرة . .

سيارات الإسعاف تعوي في يأس ، وهي تحمل من يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، الشباب والنساء يهرعون إلي الحرائق ، يطفئونها بكل ما تصل إليه أيديهم ، يحاولون إخراج من بقي حياً تحت الرماد ، ويتجمعون حول السيارة المحترقة ، كاميرات تصور ، ومراسلون من شتي بقاع الأرض يتحدثون بكل اللغات ، الكل يهرع نحو الحدث ، وحده (**إياد**) كان يبتعد . . يهرب . . لا يدري مم يهرب؟! يتلفت في كل اتجاه ، وكأن غزة بما فيها ومن فيها عيونٌ ترصده ، وأصابع تشير إليه بالاتهام ، ودّ لو أنه أغلق علي نفسه صندوقاً . . أو حتي قبراً لكي لا يصلوا إليه ، « سيقتلونني . . لا أريد أن أموت . . كتائبهم لا ترحم . . » يهرول في الحارات كالممسوس ، ناداه أحد الشباب باسمه . . أجفل . . وكأنه سمع حكماً بإعدامه . . أمسك به الشاب وهزه بعنف : « لقد قصفوا الحضانة يا إياد ، هيّا لنخرج أختك وابنتها

. . لا تخف سالمتان إن شاء الله!» حدّق (إياد) بوجه محدثه . كان يرتجف . . وبدت عيناه زائغتين وكأنه لا يفهم ما يقال ، لم يكن يفكر ذلك الحين في أخته أو ابنتها . . كان يفكر في نفسه فقط . . انتفض مخلصاً نفسه من كفّي الشاب . . وعدا عكس التيار . . يصطدم بالناس . . بالجدران . . يقع علي الأرض . . ويقوم ليعدو . . ويعدو . .

* * *

-« يا للعبث . . إنهم يسلطون الأضواء علي تلك الجثث العفنة، وينسون جرائمهم ضد شعبنا اليهودي . . لا أحب أسلوب الدعاية هذا . . »

كان (إيجال) يشير إلي شاشة التلفاز في ضجر، بينما جلس (شمعون) جامداً كتمثال من شمع، يحدق في الشاشة أمامه، لم يبد عليه أنه يسمع قائده المتذمر، كانت الشاشة تنقل صورة للخراب الذي أحدثته قذائفه بغزة قبل ساعات قليلة ، هذا هو المبني الذي أصابه بدلاً من السيارة ، أو هكذا كان قبل أن تحيله القذيفة إلي كومة من التراب والرماد، وأسياخ الحديد الصديء، من بين الأنقاض خرجت امرأة تصرخ في وجه الكاميرا . . تحمل في يدها جزءاً من طفلة صغيرة . . الرأس والكتف وما تبقي من ذراع محترق . . راحت المرأة تصرخ وتصرخ ، حتي سقطت مغشياً عليها ، لكن وجه الطفلة المشوّه ظل يطل من بين يديها ،

بدا لشمعون أنه يصرخ هو الآخر ، ويشير نحوه بإصبع صغير أكلت النار نصفه، استطال الإصبع المحترق . . وخرج من الشاشة ليلتف حول عنقه، دوّت الصرخة في أرجاء الكون كله، وارتجفت أعماق (شمعون)، راح ينزف عرقاً غزيراً، ويتحسس عنقه بغير شعور، وفجأة سمع صوت (إيجال) وهو يهزه بعنف: « ما بك يا شمعون ؟ . . شمعون؟!»حدق الطيار في وجه قائده ، ومضت لحظة قبل أن يدرك؛ الفرق بين الحقيقة والكابوس. .

-« لا شيء . . لا شيء. . »ربّت (إيجال) علي كتفه قائلاً: « لا بد أنك مرهق . . لقد قمت بعمل جيد ، وعليك أن تخلد إلي الراحة . . »ارتشف (شمعون) جرعة من ماء، وهز رأسه ليفيق من حلمه، ثم نظر إلي محدثه الذي أردف: -

-« أتعرف يا شمعون . . مع أنك أصبت ذلك المبني خطأ . . إلا أنني سعيد بما حدث، يجب أن نكسر أنوف هؤلاء العرب ونحرق قلوبهم كي يستسلموا لقوتنا التي لا تقهر !» وتجمد وجه(شمعون) الناظر إلي قائده. . ولم ينبس ببنت شفة!!

* * *

لم تكن المرأة التي رآها (شمعون) سوي (فاطمة) . . ولم تكن الطفلة الممزقة سوي (ردينة). . !

وفي تلك اللحظات التي ظهرت فيها صور تهما علي الشاشات كانت (فاطمة) قد أفاقت من غشيتها ، وتكومت علي نفسها واجمة علي أريكة بيتها ، والألم يفري أحشاءها ويمزق

نياط قلبها الواهن، انصرفت النسوة وتركنها لتستريح قليلاً، لكن ابنها (حسين) رفض أن يتركها ، فضمته إلي صدرها ليريح عليه رأسه الصغير . . المثقل بأسئلة لا تنتهي . .

-« إلي أين ذهبوا بردينة يا أمي؟ ! »

ومن خلف دموعها أجابت (فاطمة) : -

- « إلي الله يا حبيبي . . »

وعاد (حسين) يسأل في براءة : -

- « ألن تعود إلينا ؟ . . »

وعقدت الأحزان لسان الأم . . فلم ترد . . أردف (حسين) قائلاً : -

« أريد أن أراها يا أمي . . لن أضربها ثانية . .

ولن آخذ عروستها الصغيرة . . ألن تعود يا أماه ؟ ! »

راحت الأم تنتحب بلا صوت : -

-« لا . . لن تعود يا صغيري . . نحن سنذهب إليها . . »

-« ومتي نذهب إليها ؟ ! »

- « الله وحده يعلم يا حسين . . »

- « ولماذا أخذها الله وتركنا؟ »

وحدقت أمه في الفراغ لحظة ثم قالت : -

-« ربما ليــراها والدها الذي لم يرها في هذه الدنيــا . .

ويضمها إليه كما أضمك أنا الآن! . .

ربما قد اشتاق إليها . . »

-« وهل أبي في نفس المكان الذي ذهبت هي إليه؟!

وسرحت (فاطمة) ببصرها وكأنها تري ما تصف لولدها : -

-« نعم يا (حسين) . . هما في الجنة إن شاء الله . .

حيث الراحة والنعيم . . ورضوان الرحمن الرحيم . . »

وسكت (حسين) لحظة ثم عاد يسأل : -

-« أليس في الجنة يهود يا أمي ؟! »

-« لا يا حبيبي . .

ليس فيها سوي المؤمنين الصالحين . . »

-« أريد أن أذهب إلي هناك يا أمي . . »

وابتسمت (فاطمة) ابتسامة حزينة، وهي تضم ابنها إلي صدرها بقوة : -

- « سنذهب جميعاً إذا شاء الله يا (حسين) . .

سنذهب جميعاً ولو بعد حين . . » .

ورد (حسين) في حماس : -

« نعم سنذهب جميعاً، ولكن بعد أن نقتل اليهود كلهم ليذهبوا إلي النار . . »

وسادت لحظات من الصمت . .

لكن (حسين) عاد يسأل : -

-« ولكن لماذا تبكين يا أماه؟!»

ولم تجب الأم . .

ضمت صغيرها أكثر وأكثر . .

وراحا يبكيان سوياً!

❊ ❊ ❊

(10) لم أعد أحتمل:-

البحر هادىء هذا الصباح، وكأن شيئاً لا يجري علي الشاطيء القريب المشتعل لم يكن ذلك الصياد المسكين سوي (عمر)، يتظاهر بتهيئة شباكه للصيد، يحرك مجدافيه في هدوء، هو يعلم أنه المقصود من هذا كله، ولكن . .

كيف علم الخنازير بوجوده في السيارة ؟

وكيف حددوا الزمان والمكان ؟!

في الأمر ما يريب . .

سيحين الوقت للبحث في هذا . . عليه الآن أن يركز ذهنه وقواه كلها في عمليته، لا وقت للحزن أو التساؤل ، كان بوسعه أن يري المروحيات تدور في الجو، وهو يبتعد عن الشاطيء رويداً رويداً . .

يرقب أعمدة الدخان المتصاعدة من شوارع غزة الجريحة، وأبواق سيارات الإسعاف تتناهي إلي سمعه من بعيد. تشق

الآفاق مصدرة عويلاً طويلاً ، يوقظ الآلام!

سكن العويل . .

ومضت الدقائق بطيئة تترقب ، كان القارب قد خرج من نطاق غزة، وراح يقترب من شواطيء عسقلان، لم تكن دوريات الصهاينة البحرية في حالة استنفار، فهم لم يتوقعوا هجوماً بحرياً يقوده قارب صيد متهالك، ولكن . .

من قال إن للصيادين العرب أن يتجولوا في مياه إسرائيل ؟!

هكذا سأل (دافيد) نفسه وهو يطوح بمقود زورق الدورية ، ويرقب الأمواج الهادئة في ملل ، كان النهار قد انتصف أو كاد . . واستلقي زميله (عامير) في الطرف الآخر من الزورق بين النوم واليقظة، أطلق (دافيد) نفيراً تحذيرياً وهو يردد ساخراً.

« ارجع أيها المعتوه وإلا أطعمنا الأسماك من لحمك النتن! »

رفع (عامير) جفنيه الثقيلين سائلاً عما يحدث، فأشاح (داڤيد) بيده في استخفاف وهو يقول :-

« لا عليك . . إنه مجرد صياد قذر . . »

وعاد (عامير) يتكوم علي نفسه مغطياً وجهه بغطاء رأسه، وعاد (داڤيد) ببصره إلي القارب الذي غدا قريبًا من زورقه ، لكنه لم يجد صياده (القذر) . . لقد كان القارب خالياً تماماً!

* * *

-« ستشرفنا اليوم يا عزيزي إيجال . . أليس كذلك ؟!»

-« هذا يعتمد علي ما أعددته لنا . . هل يستحق ؟!»

ضحك (موشيه) في غرور وهو يقول :-

« ألا يكفيك ما فعله رجلنا ؟! ألا زلت تشك في قدراتنا ؟!»

رد (إيجال) في تحدي :-

« رجلكم هذا قد أعددناه لكم في مركز التحقيق خير إعداد . . ولولا ذلك ما استطعتم ترويضه!»

ورد (موشيه) بلهجة المنتصر :-

-« سنري رأيك في الوارد الجديد . . الوجه الجديد . . صنع بالكامل في مصنعنا المتواضع . . »

ومط (إيجال) شفتيه في شك : « سنري . . »

وودع كلاهما صاحبه بكلمة مقتضبة ، وأغلق جهاز الاتصال لكن جهاز (إيجال) لم يلبث أن تعالي رنينه الحاد فتح (إيجال) الجهاز في قلق . . لقد كانت هذه رنة الطواريء ؟ . .

أتى صوت المتحدث عبر الجهاز :-

« سيدي . . لدينا زورق بحري خرج من مسار دوريته، ولا يستجيب لنداءات الاتصال . . »

وردد (إيجال) في برود :-

« أعطني إحداثيات هذا الزورق اللعين . . »

رد محدثه في تردد : « ولكن يا سيدي . . لا زال هناك احتمال أن يكون رجالنا علي متنه . . »

وصرخ (إيجال) فجأة : -

« فليذهب رجالنا إلي الجحيم ، أعطني الإحداثيات اللعينة . . »

وعلي الفور ظهرت الإحداثيات علي شاشة الجهاز (إيجال)، فأغلق الاتصال دون كلمة أخري، وشرع يجري اتصالاً آخر وهو يردد في نفسه :

- « لم يبق إلا خطف زوارقنا . . لقد جاء دورك مجدداً يا عزيزي (شمعون)! »

* * *

تم كل شيء ببساطة ، شعر (داڤيد) بحركة خلف ظهره، وقبل أن يدير وجهه كان نصل السكين البارد قد اخترق ظهره ونفذ إلي القلب مباشرة ، تشبثت يداه بمقود الزورق، وارتعد جسده لحظة وقد ماتت على شفتيه كلمة لم يقلها أبدًا . . ثم هوي . .

لم يضيع (عمر) وقته ، بل انتزع السكين من ظهر (داڤيد) ليغمدها في صدر (عامير) الذي لم يفق بعد من سكرة نومه . .

لم يكن هناك داعٍ لضجيج الرصاص . . ألقى الجثتين إلي البحر، ووجّه الزورقَ نحو قاربه لينقل الحقيبة في سرعة فائقة من هذا إلي ذاك ، وبعد لحظات كان يتوجه بزورقه إلي هدفه

المنشود تلك البقعة المهجورة علي شاطيء عسقلان، يحفظ معالمها عن ظهر قلب وإن لم يزرها أبداً من قبل ، كان يقترب من هدفه الذي أضحي علي مرمي البصر، حين ارتفع صوت جهاز الاتصال بالزورق مردداً كلمات عبرية سريعة، فهم منها (عمر) سؤالاً عن سبب تحول اتجاه الزورق عن خط الدورية المرسوم. . فأغلق جهاز الاتصال. . وضاعف من سرعته!

-« سير سلون بعض الزوارق الأخري حالاً، وربما بعض المروحيات . . »هكذا ردد (عمر) في نفسه، ولم يكن ظنه ليخيب. . فقد كان (إيجال) في تلك اللحظة يصرخ في جهاز اتصاله مخاطبًا (شمعون. . طيار المروحية المستلقي علي كرسيّه الوثير. .

« انهض حالاً يا شمعون . . لديك مهمة عاجلة. . أريدك طائراً في خلال خمس دقائق . . الهدف يتحرك. . » انتظر (إيجال) لحظات ، لكنه لم يتلق رداً ، كان عليه أن ينتظر طويلاً، ولو قدر له أن يري صاحبه في تلك اللحظة، للفت نظره ذلك المسدس الشخصي في يده، وقد ارتخت أصابعه من حول المقبض ، وللمح كذلك تلك البقعة الحمراء الداكنة علي جانب رأسه، ولربما استطاع أن يقرأ تلك الكلمات القليلة المكتوبة بخط مهزوز علي الورقة أمامه :-

« بلغوا اعتذاري لشعبنا اليهودي. . لم أعد أحتمل. . ! »

(11) تدمير الهدف؟..

كانت (شهد) اليوم في أبهي زينتها ، فالسادة قادمون إلي المصنع ، وربما أعجب بها أحدهم فرفعها فوق منزلتها الحالية ، هي دائماً تحلم بالأعلي ، بالقصور والحفلات والمجوهرات . . يجب أن تنتشل نفسها من هذا المستنقع قبل فوات الأوان ، (موشيه) قلق اليوم . . يروح ويجيء . . كطالب مجتهد ينتظر بدء الامتحان ، أما (غسان) فلم يحضر اليوم إلى الدوام . . يبدو أنه قد استغل الفرصة ليحظي بيوم إجازة ويأتي علي موعد الاجتماع بعد الدوام، عندما انتصف النهار ظهر (إياد) . . مضطرباً . . زائغ العينين . . توجه فوراً إلي مكتب (موشيه) غير عابيء بصرخات العجوز (راحيل) . .

-« يجب أن توفروا لي الحماية . . » كانت تلك أول كلمة نطق بها . . ابتسم (موشيه) : -

-« ولماذا يا عزيزي؟! هل كشف الإرهابيون أمرك؟» أطرق (إياد) في خزي وهو يقول : « لن أنتظر حتي يكشفوا أمري . . سيقتلونني فوراً إذا حدث ذلك . . »قام (موشيه) من كرسيه ، وربّت علي كتف (إياد) قائلاً : -

- « لا عليك يا إياد ، إنها رهبة العملية الأولي . . ستعتاد الأمر، وستكون من أفضل رجالنا ، أعطني (الولاعة) . .

واذهب لتغسل وجهك من غبار الطريق لا أريد أن يلحظ العمال شيئاً . . »وأخرج (إياد) الولاعة، ودسها في يد محدثه ، ثم خرج من الغرفة، ليجد (شهد) في انتظاره . . وابتسامتها الحلوة . . تنوّر . . وجهها، وتنور الظلام الذي يتخبط فيه . .

« لو أن الحياة كلها حلوة . . كابتسامتك!!»

* * *

الصخرة البيضاء . . كأنها وجه يتطلع إلي السماء في ضراعة . . ثلاث خطوات إلي يمين اوالناظر إلي البحر ثم خطوتان تبتعدان عن المياه . . هذا هو المكان المحدد راح (عمر) يحفر الرمال بسرعة شديدة، ولسانه لا يفتر عن ذكر الله . . «الأمر يشبه لعبة الكنز . . وهل الحياة إلا لعبة ؟!» . . أتم دفن الحقيبة في مكانها المحدد ، وقلّب بصره في آفاق البر والبحر والجو . . فلم يجد للعدو أثراً . . حمد الله - عز وجل - ، وعاد إلي زورقه مسرعاً، يجب أن يبتعد عن المكان بأسرع وقت ثم لا يضير ما حدث له بعد ذلك . . راح يدعو لأخيه مستلم الأمانة . . وهو يحول دفة الزورق نحو الجنوب . . وينطلق بأقصي سرعة . . في تلك اللحظة كان (إيجال) يصرخ في جهاز اتصاله -«أين أنت يا شمعون اللعين؟!»

لكنه لم يتلق رداً . . وما لبث أن أدار الجهاز إلي موجة أخري وراح يصدر أوامره للمروحيات البديلة، ثم للزوارق المتوفرة في

نطاق المطاردة أو قريباً منه . . وانطلقت الآليات الجائعة . . تطارد الفريسة!

* * *

غـزة تقتـرب . . بشـاطئـهـا الحـبيب . . « يا لـهـا من نزهة ممتعة . . »كان (عمر) ينطلق بالزورق الإسرائيلي ، يلمح بطرف عـينه شـواطيء أرضـه المسلوبة ، تري . . مـتي نعـود إليك يا فلسطين ؟! . . متي تطهر أراضيك من أنجاسهم؟! هذه أرضنا . . لا تعرف منها اليوم شيئاً ، وكأنها لم تكن يومًا (فلسطين)!!

لم تدم النزهة طويلاً . . فقـد ظهـر الزورق الأول في الأفق . . وهو يطلق مدفعاً رشاشاً تدوي رصاصاته نحو زورق (عمر) . . انبطح (عمر) سريعاً . . وأسرع يلتقط سلاح الرقيب الهالك (عامير) بعد أن ثبت مقود الزورق نحو الجنوب (لا داعي لكل هذه الرصاصات) . . هكذا حدث نفسه . . وصوَّب نحو خزان الوقود . . ثم قال (بسم الله . .) فانطلقت الرصاصة نحو هدفها لينفجر الزورق في لحظة . . كبّر (عمر) . . عاد إلي المقود . . وراح يراوغ بزورقه يمنة ويسرة وهو يقترب به إلي الشاطيء . . ويجتنب قذائف الزورق الثاني الذي ظهر في الأفق . . بعد لحظات . . كانت المروحيات قد دخلت الميدان . . ثلاث مروحيات تقترب من بعيد . . كان واضحاً أنهم لن يترددوا في نسف الزورق . . فلم يكن أمام (عمر) خيار . . لقد حان الوقت

لممارسة السباحة ، ألقي بنفسه من جانب الزورق تاركاً إياه ينطلق إلي الجهة المقابلة ليلاقي مصيره المحتوم . . قذيفة من إحدي المروحيات أحالته إلي جحيم يشتعل فوق الماء . .

وتلقي (إيجال) الإشارة فوراً . . « لقد تم تدمير الهدف . . »

* * *

(12) ما تبقي :-

لم يذهب (إيجال) إلي المصنع ، كان مشغولاً بالتحقيق في أمر الزورق الذي دمّر بعد اختطافه ، راح يسألنفسه في حيرة« وما الهدف» إنْ كان مجرد إثبات للوجود . . وقتل الرقيبين علي الزورق . . فلماذا توجه إلي ذلك الشاطيء المهجور ؟! ولماذا توقف هناك لثلاث دقائق قبل أن يعود إلي غزة؟! هل هي عملية إنزال بحري ؟! . . ربما . . وأكمل حديث نفسه بحديثه عبر جهاز الاتصال . . «حاصروا المكان الذي توقف فيه الزورق ، ، ابدأوا تمشيطه فوراً . . لا أريد مفاجآت لعينة . . » أغلق الجهاز . . ولكن رنينه لم يلبث أن تعالي . . « لن أرد علي ذلك المغرور (موشيه) . . لا وقت عندي للذهاب إلي مصنعه . . يكفيه (إيهود) و (شاؤول) . . وقد ذهبا إليه» . . لكن المتصل لم يكن (موشيه) . . فتح (إيجال) الجهاز . . واستمع من خلاله لكلمات قليلة . . ثم أغلقه دون أن ينبس ببنت شفة . . لقد كان

(شمعون) . . قتل نفسه فيما يبدو . . لماذا فعل بحق الجحيم؟! . . لماذا فعل ؟! لماذا تجري الأمور علي غير ما يشتهي ؟! شيء في أعماقه يحس بالخطر . . بكارثة قريبة . . لكن الكارثة كانت أقرب مما يتصور !

* * *

« لماذا يبدو غسان سعيداً جداً ؟ ! »هكذا تساءل (إياد) في ضجر)، فردت (شهد) في مرح وهي تضحك كعادتها . .

-« أتريده أن يبقي حزيناً؟ ! »تساءلت (شهد) بدلال قبل أن تردف : « لا شيء في الدنيا يستحقَ الحزن لأجله . . »كان (غسان) يخطو نحو المكتب . . كان سعيداً بحق . . بل كان في حالة عجيبة من النشوة والوجد تهز أعماقه ، نشوة من قضي عمره صامتاً . . وآن له أن يصرخ . . ، من قضي عمره حبيساً وحان له أن يعانق فضاءات السماء ، مشاهد عمره الحزين تمر أمام عينيه . . جسد أبيه يتكوم فوق ما تبقي من أنقاض بيتهم العتيق . . الدم والتراب وأسياخ الحديد . . يد عمته تغطى عينيه كي لا يري ، تحمله وتهرب إلي اللا مكان . . كل شيء ينهار تحت قصف القنابل . . مجلسه في آخر الفصل مستخزياً هارباً من سخرية أطفال اليهود . . لا يتركونه يوماً بلا جرح أو كدمة يعود بها إلي عمته مطأطيء الرأس . . المعلمة تري وتضحك هي الأخري . . حرمانه من الجامعة التي حلم بها . . ذُلّ الحاجة

وخوف العقاب وانتظار الراتب الحقير آخر الشهر . . لقد آن له أن يصرخ . . يصرخ بكل ذرة من كيانه ليقول : « لا » كلمة من نار . . تحرق من سرق أرضه وحلمه . .

علي شفتيه ابتسامة عريضة ، يتلو الشهادة . . ويخطو نحو الشهادة . . عيون الآخرين ترمقه في سخرية . . ثم في عجب . . ثم في فزع رهيب ينبثق فجأة حين يدركون . . حين يبصرون يده تجذب السلك الرفيع . . حين يفهمون بعد أن فات الأوان ، تنحبس الصرخات في حلوقهم . . وتحلق أجنحة الموت فتعتنقهم . . ينفجرون . . وينفجر كل شيء . . كل شيء . . . كانت (شهد) تخطو خلف (غسان) داخلة إلي المكتب . . وهي ملتفتة بعنقها إلي الخلف نحو (إياد) . . تشده من يده إلي الداخل . . تضحك في مرح . . وكفها اللين يقبض علي كفه .

فيستسلم لنعومتها الحبيبة . . حين انفتحت بوابة الجحيم . . لفحت وجهه النيران الغاضبة . . حملته بضعة أمتار إلي الوراء . . وضربت به الجدار القريب . . يتلوي جسده . . آلام رهيبة تكوي وجهه وعنقه وصدره . . إحدي عينيه تنزف . . والأخري تحدق فى كف (شهد) التي لا تزال تقبض علي كفه ، لا تزال دافئة . . معها الذراع البضّ يرتعد . . تتفجر الدماء من أصله المبتور، هو كل ما تبقي له من (شهد) . . أما جسدها الجميل الصغير فلم يعد جسداً . . بل صار أشلاء ممزقة . . ترتعش هنا وهناك قبل أن

تسكن إلي الأبد . . . انتفض (إياد) كالملدوغ ، ألقي الذراع المبتورة من يده ، وكأنه يمسك بحيّة لعينة تشده إلي أعماق الجحيم. وانطلق . . يجري . . ويجري . . تتقاذفه الجدران . . ويتخبطه الشيطان . .

* * *

(13) الموت في غزة:

« وجد إياد مقتولاً برصاصة في مؤخرة رأسه، قد ألقيت جثته علي مزبلة بإحدي حارات غزة . . في نفس اليوم الذي وقع فيه انفجار عسقلان . . »قلّب (عمر) نظره في وجوه إخوانه الناضرة . . المطرقة في تأمل، كان أول المتحدثين« أبو العباس الأندلسى» الذي سأل : -

-« ومن قتله؟ ! »رفع (عمر) كتفيه ومط شفتيه قائلاً : -

-« وما الفرق ؟ . . لم يكن الموت في غزة آنذاك أمراً غريباً لتبحث عن أسبابه، لقد كان حدثًا يومياً لا يثير كثيراً من التساؤلات . . لقد مات . . وكفي ! ! »هز (أحمد الورداني) رأسه في وجوم وهو يقول: « نعم . . مات . . ولكن علام مات ؟ تلك هي القضية . . »أطرق (عمر) ولم يعلق . . ، وسادت لحظات من الصمت لم يلبث (غازي) أن ألقي بالسؤال التالي : -

-« وماذا فعل الله بك؟ ! »

ورد (عمر) : - « أكملت السباحة إلي الشاطيء . . وعاد

المطاردون لي بعد أن تأكدوا من دمار الزورق بالكامل ، لقد كان في العمر بقية كما يقولون . . » وهز (غازي) رأسيه باسماً : « نعم . . وكان في عمر عدو الله أيضاً بقية . . »وضحك (عمر) قائلاً : « تعني إيجال؟! نعم . . لقد نجا اللعين من انفجار المصنع الذي مزق رجاله ، كان عليه أن يعيش ليري أياماً أخري من أيام الله ، أياماً أخزي الله فيها اليهود ، وَمَرَّغ أنوفهم في التراب»

ورفع (الورداني) إصبعه محذراً : « تلك قصة أخري يا أخي الحبيب . . أتريد أن تستأثر بها وحدك؟!»وابتسم (عمر) وهو يقول : - « لا يا أخي . . أعلم أنها قصتنا جميعاً . . لا قصتي وحدي . . »وانبري (غازي) و (الأندلسى) في صوت واحد : -

-« فقصوا علينا الخبر إذن . . فإنا لسماعها بالأشواق . . » وارتسمت ابتسامة غامضة علي وجه (أحمد الورداني) وهو يشير إلي وجه جديد لم يألفه الجالسون من قبل : « ليس قبل أن تسمعوا القناص . . لقد كان لأرضه حظ كبير في صنع تلك الملحمة . . »

وأردف وقد اتجهت الأنظار إلي حيث أشار إلي ذلك الوجه الوضيء . . والسواعد المفتولة« إنه قناص بغداد . . »

ونادي المنادي . . أن عودوا إلي أهليكم آمنين هانئين . . ولنا لقاء . . نستمع فيه حكاية القناص ، ذلك الذي لم تخطىء

رصاصاته هدفها ، في زمن اختلطت فيه الدماء الزكية والخبيثة، وتشابكت به الرصاصات والنيران، واحترف الجميع صناعة الموت، كيف استطاع أن يعبر حقول الشوك، ويرسم الطريق لنيرانه، كي تخترق صدور العدو، وتحمي ظهر الصديق؟!.. هذا ما سنعرفه في القصة القادمة..

(قناص بغداد)

تمت بحمد الله

محمد عبد الحكيم

* * *